سُورَةُ مَرْيَمَ

مكية وهي ثمان وتسعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾.

﴿كٓهيعٓصٓ﴾[1] قد سلف أن الحروف المقطَّعة أسماء لسور، أو هي تشير إلى بعض أسماء الله الحسنى.

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي هذا المتلو، ذكرُ رحمة ربك ﴿عَبْدَهُۥ﴾ أي لعبده زكريا نقصه عليك، ومعنى ذكر الرحمة: بلُوغها وإصابتها ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدل منه أي هذا العبد هو زكريا.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ ظرف (لرحمة ربك) أي حين نادى ربه نداءً خفياً في ضراعة وتوسل، وقد راعى عليه السلام حسن الأدب في إخفاء دعائه، فإنه أدخل في الإخلاص، وأبعد عن الرياء، وأقرب إلى

---

(١) الحروف الهجائية المقطعة، للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، كما هو رأي المحققين، وانظر أول سورة البقرة.

الخلاص عن لائمة الناس، على طلب الولد في أوان الكبر قالوا: كانت سِنُّه حينئذ مائة وعشرين عاماً، وامرأته ثمان وتسعون سنة.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ هذا تفسير الدعاء، أصلُه يا ربِّي فحذف حرف النداء والمضاف إليه اختصاراً ﴿ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ الوهن: الضعف، وإسناده إلى العظم لما أنه عماد البدن وأشد أجزائه صلابة، فإذا وُهن كان ما وراءه أوهن ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ شبَّه عليه السلام الشيب بشواظ النار، وانتشاره في الشعر باشتعالها، ثم أخرج مخرج الاستعارة أي عمَّ الشيب رأسي وانتشر انتشار النار في الهشيم، وأسند الاشتعال إلى الرأس، الذي هو مكان الشيب مبالغة ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ ﴾ أي بدعائي إياك ﴿ شَقِيًّا ﴾ أي كنتُ مستجاب الدعوة، ولم أكن خائباً في وقت من الأوقات، بل كلما دعوتك استجبتَ لي يقال: سعد فلان بحاجته إذا ظفر بها، وشقي إذا خاب، وهذا توسل منه عليه السلام، بما سلف منه تعالى من الاستجابة.

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ ﴾ أي من يلي أمره بعد موته عليه السلام، يعني بني عمه، فخاف أن لا يحسنوا خلافته على أمته ﴿ مِن وَرَآءِى ﴾ أي من بعد موتي ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ أي عقيماً لا تلد من حين شبابها ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ﴾ أي أعطني من محض فضلك، لا بالأسباب العادية ﴿ وَلِيًّا ﴾ من صلبي يلي أمرك من بعدي.

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ يَرِثُنِي ﴾ من حيث العلمُ، والدينُ، والنبوة، فإن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون المال كما قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناهُ صدقة»[1] ﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ مرضياً عندك، قولاً وعملاً، فأجاب الله دعاءه.

فقال: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ هذا جواب الله لندائه الخفيِّ، ووعد بإجابة دعائه عليه السلام، حسبما تقتضيه المشيئة الإلٰهية المبنيَّة على الحكم والمصالح، فإن الأنبياء عليهم السلام، وإن كانوا مستجابي الدعوة، لكنهم ليسوا كذلك في جميع الدعوات ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ وفي تعيين اسمه، وتخصيصه به، مزيد تشريف، فإن التسمية بالأسامي البديعة، الممتازة عن سائر أسماء الناس، تنويه بالمسمى، قالوا لم يكن له عليه السلام مَثَلٌ، في أنه لم يعص الله، ولم يهمَّ بمعصية قط، وأنه ولد من شيخ فان، وعجوز عاقر، وأنه كان حصوراً، وسُمِّي يحيىٰ لأنه حيي به دين الله.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه وانظر جامع الأصول ٩/ ٦٤٠.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ من عتا يعتو أسنَّ وكبر، فهو عات أي بلغتُ في الكِبَر والشيخوخة نهاية العمر، فكيف يأتيني مولود؟.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩﴾.

﴿قَالَ﴾ أي الله تعالى، أو الملك المبلِّغ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف مقحمة، أي الأمر كذلك، تصديق له ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ جملة مقررة للوعد، دالة على إنجازه، كأن قيل: قال الله تعالى: مثل ذلك القول البديع، ومثل ذلك الوعد، هو عليَّ خاصة هين، وإن كان في العادة مستحيلاً. جاء بلفظ الالتفات، جرياً على سنن الكبرياء، لتربية المهابة، كقول الخليفة: «أمير المؤمنين يرسم لك» مكان «أنا أرسم» ثم التفت من ضمير الغائب إلى ياء العظمة إيذاناً بأن مدار كونه هيناً عليه سبحانه، هو القدرة الذاتية، لا ربوبيته تعالى له خاصة ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ أي أوجدتك من قبل يحيى، والمراد به ابتداء خلق البشر، إذ هو الواقع إثر العدم المحض، وإنما لم ينسب إلى آدم عليه السلام بأن يُقال: وقد خلقت أباك آدم من قبل، ولم يك شيئاً، لتأكيد الاحتجاج، وتوضيح منهاج القياس، حيث نبَّه على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه من العدم، وكان حال زكريا عليه السلام، أولى بأن يكون معيار الحال ما يشد به نسب الخلق المذكور إليه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ أي اجعل لي علامة تدل على حمل امرأتي، وقوله «سَوِيّاً» حال من ضمير

المتكلم، أي حال كونك سوي الأعضاء واللسان، ما بكَ شائبة بُكْمٍ وَلا خَرَس، ولم يك بك مرض.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ ﴾ أي من المصلَّى، أومن الغرفة، وكانوا من وراء المحراب ينتظرون أن يفتح لهم الباب، فيدخلوه ويصلّوا معه، إذْ خرج عليهم متغيراً لونُه، فأنكروه وقالوا: مالك؟ ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ ﴾ أي أومأ إليهم لقوله تعالى في آية أخرى ﴿إلاَّ رَمْزاً﴾ ﴿ أَن سَبِّحُوا۟ ﴾ أي صلُّوا أو نزّهوا ربكم ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ والمراد بهما صلاة الفجر، والعصر، أو نزّهوا ربكم طرفي النهار وقولوا: سبحان الله.

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ يَٰيَحْيَىٰ ﴾ أي وهبنا له يحيى، وقلنا له يا يحيى ﴿ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ التوراة ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ بجدٍّ وحزم ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ يعني الحكمة، والفقه في الدين، روي أنه دعاه الصبيانُ إلى اللعب فقال: ما للَّعب خُلقنا.

﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ أي آتيناه من جنابنا رحمة في قلبه، وشفقة على أبويه ﴿ وَزَكَوٰةً ﴾ أي طهارة من الذنوب ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ مطيعاً ومتجنباً عن المعاصي، وكان من تقواه أنه عليه السلام لم يعمل خطيئة، ولم يهمَّ بها قط، فإن قلت: كيف يصح حصول الفطنة والنبوة حال الصبا؟ قلت: لأن أصل النبوة على خرق العادة.

﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ ﴾ أي باراً بهما محسناً إليهما ﴿ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ أي لم يكن متكبراً عاقاً لهما أو عاصياً لربه.

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ ﴾ من الله تعالى ﴿ يَوۡمَ وُلِدَ ﴾ من أن يناله الشيطان مما ينال من بني آدم ﴿ وَيَوۡمَ يَمُوتُ ﴾ من عذاب القبر ﴿ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ﴾ من هول القيامة، وعذاب النار، يقال: أوحشُ المواطن ثلاثة: يوم يولد لأنه يرى نفسه خارجاً من مكانه، ويوم يموت لأنه يرى قوماً ما شاهدهم قط، ويوم يبعث لأنه يرى مشهداً عظيماً، فأكرم الله تعالى يحيى فخصَّه بالسلامة في هذه المواطن الثلاثة.

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾ خوطب به النبي ﷺ، وأمِرَ بذكر قصة مريم، بعد قصة زكريا عليه السلام، لما بينهما من كمال الاشتباه، أي اذكر للناس نبأها، فإن الذكر لا يتعلق بالأعيان ﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ ﴾ أي اعتزلت وتنحَّتْ ﴿ مِنۡ أَهۡلِهَا ﴾ من قومها ﴿ مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴾ أي شرقيَّ بيت المقدس لتتفرَّغ هنالك للعبادة، ولذلك اتخذ النصارى المشرق قبلة لهم.

﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا ﴾ وكان موضعها المسجد، فإذا حاضت تحوَّلت إلى بيت خالتها، وإذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي في

ذلك المكان في مغتسلها ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي جبريل عليه السلام، والإضافة للتشريف، وإنما سمي روحاً لأنه روحاني، أو لأن الدين يحيى بوحيه - ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي سويَّ الخلق، كامل البنية، في صورة آدمي شاب، وضيء الوجه. وإنما تمثل لها بذلك لتأنس بكلامه، وتتلقى منه ما يلقي إليها من كلماته تعالى، إذ لو بدا لها على الصورة الملكية، لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته ومحادثته.

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ أي أستجير بالرحمن منك، وهذا شاهد عدل، بأنه لم يحضر ببالها شائبة ميل إليه، رغم تمثيله على ذلك الحسن الفائق لابتلائها، ولقد ظهر منها من الورع، والعفاف ما لا غاية وراءه وذكره تعالى بعنوانِ الرحمانية، للمبالغة في العياذة به، واستجلاب آثار رحمته الخاصة، التي هي العصمة مما دهمها ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ جواب الشرط محذوف، أي إن كنت تتقي الله فلا تتعرضْ لي!! وهذا كقول القائل: إن كنت مؤمناً فلا تظلمني، كقوله تعالى: ﴿وَذَروا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين﴾[1].

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ يريد عليه السلام أني لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر، وإنما أنا رسول ربك الذي استعذت به ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا﴾ أي لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدرع ﴿زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، مترقياً على الخير والصلاح، ولما علم جبريل عليه السلام

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٨.

خوفها، قال إنما أنا رسول ربك، وأظهر لها معجزة، عرفت به أنه جبريل عليه السلام، فزال خوفها.

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ كما وصفته ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾؟ أي والحال أنه لم يباشرني بالنكاح رجل، والمسُّ كناية عن النكاح، ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أي ولم أكن فاجرة زانية تبغي الرجال؟.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ جبريل عليه السلام تقريراً لمقالتها، وتحقيقاً لها ﴿ كَذَٰلِكِ ﴾ أي الأمر كما قلت ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ الذي أرسلني إليك ﴿ هُوَ ﴾ أي هبة الغلام، من غير أن يمسَّكِ بشرٌ أصلاً ﴿ عَلَيَّ ﴾ خاصة ﴿ هَيِّنٌ ﴾ وإن كان مستحيلاً عادة، لما أني لا أحتاج إلى الأسباب والوسائط ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي نفعل ذلك لنجعله آية لهم، وبرهاناً يستدلون به على كمال قدرتنا، والالتفاتُ إلى نون العظمة لإظهار كمال الجلالة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ عظيمة ﴿ مِّنَّا ﴾ عليهم يهتدون بهدايته، ويسترشدون بإرشاده ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أي محكماً، قد تعلّق به قضاؤنا الأزلي، وقُدِّر وسُطِّر في اللوح المحفوظ، لا بد من جريانه عليك البتة، فلما اطمأنت إلى قوله دنا منها، فنفخ جيب درعها فوصلت النفخة إلى رحمها.

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ ﴾ في الحال وكانت مدة حملها سبعة أشهر، وقيل تسعة أشهر وكان النافخ جبريل عليه السلام، لأن الظاهر من قوله: ﴿ لِأَهَبَ

لَكِ﴾ أنه أُمر أن يكون ذلك من قِبَله ﴿فَأَنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ أي فاعتزلت به وهو في بطنها ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي بعيداً من أهلها وراء الجبل.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي فألجأها، وهو في الأصل منقول من «جاء» كآتىٰ في أعطى، والمخاضُ: وجعُ الولادة، مَخَضَت المرأة أي أخذها الطلق ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أصلها، وكانت نخلة يابسة، وكان الوقت شتاء، ولعله تعالى ألهمها ذلك، ليريها من آياته ما يسكن روعتها، ويطعمها الرطب الذي هو طعام النفساء ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ أي الوقت الذي لقيتْ فيه ما لقيتْ من الكرب، وإنما قالته مع أنها تعلم ما جرى بينها وبين جبريل عليه السلام استحياءً من الناس، أو حذراً من وقوع الناس في المعصية بما سيتكلمون فيها[1] ﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾ أي شيئاً تافهاً شأنُه أن يُنسى ﴿مَّنسِيًّا﴾ أي متروكاً لا يخطر ببال أحد.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ جبريل عليه السلام ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ أي من مكان أسفل من مكانها، وقيل من تحت النخلة ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ أي ناداها الملك أن لا تحزني لهذا الأمر، ولا تهتمي بمقالة الناس ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ﴾ أي بمكان أسفل منك ﴿سَرِيًّا﴾ أي نهراً صغيراً، ضرب جبريل برجله الأرض، فظهرت عين ماء عذبة، فجرى جدولاً دافقاً بالماء، وهذه آية باهرة على كرامة مريم عليها السلام، وقال لها:

---

(١) عرفت أن الناس لا يصدّقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عاهرة زانية، ولهذا تمنت الموت، وقالت ما قالت.

﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَهُزِّيٓ ﴾ أي أميليه، هززته هزاً حركته فاهتز ﴿ إِلَيۡكِ ﴾ إلى جهتك ﴿ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾ الباء زائدة للتأكيد أي هزّي جذع النخلة ﴿ تُسَٰقِطۡ ﴾ أي تسقط النخلةُ ﴿ عَلَيۡكِ ﴾ إسقاطاً متواتراً ﴿ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ أي طرياً شهياً، قيل: ما للنفساء خير من الرطب، روي أنها هزتها، فجعل الله لها رأساً، وورقاً ورطباً، لتسليتها بذلك، لما فيها من المعجزات الدالة على براءة ساحتها، ومن قَدَر أن يثمر النخلة اليابسة، قدر أن يحبلها من غير فحل.

﴿ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي ﴾ من الرطب واشربي من الماء السلسبيل ﴿ وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ ﴾ أي طيبي نفساً، وانفضي عنك ما أحزنك، فإنه تعالى نزَّه ساحتَكِ عما اختلج في صدور الناس، بما أظهر لهم من الخوارق، من جري النهر، واخضرار النخلة اليابسة، وإثمارها قبل وقتها، فإنهم إذا رأوا ذلك لم يستبعدوا ولادة ولد بلا فحل، ﴿وَقَرِّي﴾ من القرار فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه، أو من القُرّ فإن العين باردة في السرور، وحارة في الحزن، ولذا يقال: قرة العين للمحبوب، وسخنةُ العين للمكروه ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا ﴾ أي آدمياً كائناً ما كان ﴿ فَقُولِيٓ ﴾ له إن استنطقك ﴿ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا ﴾ أي صياماً وكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الأكل والشرب، وقيل: كان صيامهم فيه الصمتُ، وقد نهى الرسول ﷺ عن صوم الصمت فصار منسوخاً ﴿ فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾ أُمرت بأن تخبر بنذرها بالإشارة، وقيل: أمرها أن تقول هذا القول نطقا ثم تمسك، وإنما أمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام، فإنه نص قاطع في قطع الطعن، وفيه دلالة على أن تفويض الكلام إلى الأفضل أولى.

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا ﴾ أي جاءتهم بولدها راجعة إليهم، عندما طهرت من نفاسها ﴿ تَحْمِلُهُۥ ﴾ أي حاملة له ﴿ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ ﴾ أي فعلت ﴿ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ أي عظيماً، منكراً، عجيباً، وعبَّر عنه بالشيء، تحقيقاً للاستغراب، قيل: لمّا دخلت على أهلها ومعها الصبيُّ، بكوا وحزنوا، لأنهم كانوا أهل بيت صالحين وقالوا ما قالوا.

﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ تجديد للتوبيخ، عنوا به هارون النبي عليه السلام، لأنها كانت من نسله، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وقيل هو رجل صالح كان في زمانهم شبهوها به في الصلاح، عن المغيرة بن شعبة قال: سألت عنه رسول الله ﷺ فقال: «إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم»(١) ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ﴾ عمران ﴿ ٱمْرَأَ سَوْءٍ ﴾ أي زانياً ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ ﴾ حنة ﴿ بَغِيًّا ﴾ أي زانية، تقرير وتنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين، فُحْشٌ ومنكر عظيم!.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى عيسى عليه السلام أن كلِّموه، ولما أشارت إليه غضبوا وتعجبوا ﴿ قَالُوا۟ ﴾ منكرين لجوابها ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ

(١) أخرجه مسلم في الآداب رقم ٢١٣٥ ونصُّه عن المغيرة قال: «لمَّا قدمتُ نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرءون ﴿يا أخت هارون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ ـ أي بألف سنة ـ فلمَّا قدمتُ على رسول الله ﷺ سألتُه عن ذلك؟ فقال: إنهم كانوا يسمُّون بأنبيائهم، والصالحين قبلهم»..

صَبِيًّا﴾؟ - ولم نعهد صبياً في المهد تكلّم! ولما قالوا هذا، اتكأ وأقبل عليهم، وتكلَّم بكلام فصيح صريح.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أنطقه الله عزَّ وجلَّ بذلك، تحقيقاً للحق، وردّاً على من يزعم ربوبيته[1] ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَجَعَلَنِي﴾ مع ذلك ﴿مُبَارَكًا﴾ نفّاعاً، معلّماً للخير، والتعبير بلفظ الماضي باعتبار ما سبق في القضاء المحتوم، فإن ما حكم الله به أزلاً لا بدَّ أن يقع، كقوله سبحانه: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ أو بجعل ما شارف الوقوع واقعاً، وروي عن الحسن أنه كان في المهد نبياً، وكلامه من معجزاته، والأظهر أن معناه: سيجعلني نبياً، ويؤتيني الكتاب وقيل: كلَّمهم بذلك ثم لم يتكلم، حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي حيثما كنت ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي أمرني بها أمراً مؤكداً ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ زكاة المال إن ملكته أو بتطهير النفس ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ في الدنيا.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) أوّلُ كلمةٍ نطق بها السيد المسيح، وهو طفل رضيع ﴿قال إني عبد الله﴾ وكان ذلك معجزة له تدل على براءة أمه، وطهارتها من مقارفة الفاحشة، ولا نجد في الأناجيل هذه المعجزة، وهي قوله: ﴿إني عبدُ الله﴾ لأنها تبطل مزاعم النصارى في ألوهية المسيح، ولهذا حذفوها من الأناجيل، مع أنها من سواطع المعجزات والبراهين!!.

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ أي جعلني باراً بها، والتنكير للتفخيم ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي عنيداً متعظماً متكبراً على عباد الله، شقياً في حياتي.

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾.

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أي وسلام الله عليَّ في يوم ولادتي، وفي يوم مماتي، ويوم خروجي حياً من قبري، وفيه تعريض باللعن على من اتهم مريم بالزنا، ونظيره قول موسى عليه السلام: ﴿والسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَىٰ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى من فُصِّلت نعوته الجليلة ﴿ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ لا ما يصفه النصارى وهو تكذيب لهم فيما يصفونه به من دعوى الربوبية ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي يشكُّون ويتنازعون، فيقول اليهود: ساحر وابن زنى، والنصارى يقولون: هو ابن الله، وكلا الفريقين مفترٍ كاذب.

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) ﴾.

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾ أي ما صحَّ وما استقام له تعالى ﴿ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ تكذيب للنصارى ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهٌ له تعالى عما بهتوه ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ بلا تأخير، فمن هذا شأنه، كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ وقد نص عيسى على عبودية نفسه، لإزالة التهمة عن الله تعالى.

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) ﴾.

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا هو الدين القويم الذي لا يضل سالكه.

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ الحزبُ: الفرقةُ المنفردة برأيها عن غيرها نبّه تعالى على سوء صنيعهم، بجعلهم ما يوجب الاتفاق، منشأً للاختلاف، فإن ما قال عيسى عليه السلام من كونه عبداً للهِ تعالى، اختلف النصارى بالإفراط والتفريط، فقالت النسطورية: هو ابن الله، وقالت اليعقوبية: هو الله هبط إلى الأرض، وزعم بعضهم أنه ثالث ثلاثة ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وهم المختلفون في أمر عيسى، عبر عنهم بالموصول، إيذاناً بكفرهم جميعاً ﴿ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي من شهود يوم، عظيم الهولِ، والحسابِ والجزاء، وهو يوم القيامة، والنصُّ وعيد وتهديد لكل كافر، سواءٌ كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً، فإن الكفر كله ملة واحدة.

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ تعجيب من شدة سمعهم وبصرهم، أي ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب!! ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ للحساب والجزاء، والمراد أنَّ أسماعهم وأبصارهم جديرة بأن يُتعجب منهما، بعد أن كانوا في الدنيا صماً وعُمياً ﴿ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي في الدنيا ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ لا تدرك غايته، حيث أغفلوا الاستماع والنظر.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ أي يوم يتحسر الناس قاطبة، أمَّا المسيء فعلى

إساءته وأما المحسن فعلى قلة إحسانه ﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي فرغ من الحساب، وأُدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنَّة أحد، إلا أُري مقعده من النار لو أساء، ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحدٌ إلا أُري مقعده من الجنة لو أحسن ، ليكون عليه حسرة»(١) ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عما يفعل بهم في الآخرة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون به.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي نتفرد بالملك والبقاء، عند تعميم الهلاك والفناء ولا يبقى لأحد غيرنا عليها ملك، ونتوفى الأرض توفي الوارث لإرثه ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي يردّون إلينا للجزاء لا إلى غيرنا، وهذا تخويف عظيم، ووعيد شديد.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْ﴾ عطف على أنذرهم ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي في السورة أو في القرآن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي اتلُ عليهم قصته كقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ فإنهم ينتمون إليه، فعساهم باستماع قصته يقلعون عما هم فيه من الشرك والقبائح ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازماً للصدق في كل ما يأتي وما يذر ﴿نَّبِيًّا﴾ خبر آخر أي كان جامعاً بين الصديقية والنبوة.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/٤١٨.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ أي لا يسمع ثناءك وجؤارك إليه، ولا يبصر خضوعك بين يديه، أو لا يسمع ولا يبصر من المسموعات والمبصرات شيئاً ﴿ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ أي لا يقدر على أن يغنيك في جلب نفع، ودفع ضر، وقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج، واحتج عليه بحسن الأدب، حيث طلب منه علَّة عبادته، ولم يصرح بضلاله، ونبَّه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل، لغرض صحيح، والشيء لو كان حياً، مميزاً، سميعاً، بصيراً، مقتدراً على النفع والضر، ولكنَّه كان محتاجاً، لاستنكف العقل السليم عن عبادته، وإن كان أشرف الخلائق، كالملائكة، والنبيين، لما يراه مثله في الحاجة إلى من سواه، فكيف إذا كان جماداً لا يسمع ولا يُبصر؟.

ثم دعاه إلى أن يتّبعه، ليهديه إلى الحق القويم، والصراط المستقيم ولكنه كان جاهلاً عنيداً، لم يأْبَهْ للنصيحة والإرشاد.

﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ لم يسمِّ أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير، يكون أعرف بالطريق، فاستماله برفق حيث قال: ﴿ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ أي مستقيماً موصلاً إلى أسنى المطالب، ثم ثبطه عما كان عليه بأنه مع خلوه عن النفع، مستلزم للضر، فإنه في الحقيقة عبادة للشيطان من حيث إنه الآمر، ولهذا قال بعده:

﴿ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴾ فإن عبادتك

للأصنام عبادة له، إذ هو الذي يسوّلها لك، ويغريك عليها، ومعلوم أن المطاوع للعاصي عاص، وكل من هو عاصٍ حقيقٌ بأن تُستردَّ منه النعم.

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه، وهو ابتلاؤه بما ابتلي به معبوده، من العذاب الفظيع ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ أي قريناً له في اللعن المخلَّد والطرد والحرمان من دخول الجِنان.

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾؟ أي أمعرضٌ ومنصرف أنتَ عن عبادة آلهتي يا إبراهيم؟ قابل استعطافه في الإرشاد، بغلظةِ العناد، فناداه وأخَّره، ولم يقابل قوله: ﴿يَا أَبتِ﴾ بيا «بُنَيَّ» وصدَّره بالهمزة للإنكار، على ضرب من التعجب، كأنها مما لا يرغب عنها عاقل، ثم هدَّده فقال ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾ عن مقالك فيها، وعن النهي عن عبادتها ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ بالحجارة ﴿ وَٱهْجُرْنِي ﴾ أي اتركني ﴿ مَلِيًّا ﴾ أي زماناً طويلاً، أو بالذهاب عني، وإنما حكى الله تعالى ذلك للرسول ﷺ ليخفّف عليه ما كان يصل إليه، من أذى المشركين، فيعلم أن الجُهّال منذ كانوا على هذه السيرة.

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ متاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة، أي لا أصيبك بمكروه، ولا أشافهك بما يؤذيك، ولكن ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴾

أي أستدعيه أن يغفر لك، بأن يوفقك للتوبة، ويهديك إلى الإيمان، كما يلوح به قوله تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِينَ﴾[1] والاستغفار للكافر، قبل أن يتبين أنه مات على الكفر، مما لا ريب في جوازه، وإنما المحظور استدعاء المغفرة، مع بقائه على الكفر، وبعد تبيُّن موته على الكفر، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أي بليغاً في البر والإلطاف، والحفاوةُ: الرأفةُ والرحمة والكرم، والمراد أنه يستجيب لي فيما أدعوه وأطلبه منه.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ المراد بالاعتزال المهاجرة، أي أتباعدُ عنك وعن قومك ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجرة بديني، من أرض بابل إلى أرض الشام، حيث لم تؤثّر نصائحي فيكم ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ أعبده وحده ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ أي خائباً، ضائع السعي، وفيه تعريض لشقائهم، وفي تصوير الكلام بعسى التواضع، والتنبيه على أن الإجابة تفضل، وأن العبرة بالخاتمة.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجررة ابتغاء مرضاة الله، وترك الديار والأوطان ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدل من فارقهم من أقربائه الكفرة، ليستأنس بهما، لكنْ لا عقيب المهاجرة، فإن المشهور الموهوب حينئذٍ «إسماعيل» عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ إثْرَ دعائه ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ولعل تخصيصهما بالذكر لأنهما

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٨٦.

شجرتا الأنبياء ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي كل واحد منهم، جعلنا نبياً، لا بعضهم دون بعض.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ هي النبوة والمال، والأولاد، وقيل: هو الكتاب، والأظهر أنها عامة لكل خير ديني ودنيوي ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يفتخر بهم الناس، ويثنون عليهم، استجابة لدعوته بقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ والمراد باللسان ما يوجد به الكلام، وإضافته إلى الصدق، ووصفه بالعلو، للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنى به عليهم، وأن محامدهم لا تخفى، على تباعد الأعصار، وتبدل الدول والأمصار.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾ قدم ذكره على ذكر إسماعيل، لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب عليه السلام ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي مؤمناً موحِّداً اصطفاه الله لنفسه، لأنه أخلص عبادته عن الشرك، والرياء وأسلم وجهه لله ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ نبياً أرسله الله تعالى إلى الخلق، فأنبأهم عنه.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي ناديناه من ناحية اليمين من جهة جبل الطور، والجمهور على أن المراد أيمن موسى عليه السلام، لأن الجبل لا يمين له، ومعنى ندائه أنه جاءه الكلام من تلك الجهة ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ أي وشرفناه بالمناجاة ﴿نَجِيًّا﴾ أي مناجياً، مثَّل حاله عليه السلام بحال من قرّبه الملك لمناجاته، واصطفاه لمصاحبته.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ ﴾ من أجل رحمتنا ورأفتنا له ﴿أَخَاهُ﴾ لمعاضدة أخيه ومؤازرته، إجابة لدعوته حيث قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي﴾ ﴿هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ وكان أكبر من موسى عليه السلام.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ﴾ فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لإبراز كمال الاعتناء بأمره ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ وإيراده بهذه الصفة لكمال شهرته به، وناهيك وعد الصبر على الذبح بقوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ فيه دليل على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة.

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ وهو أن يقبل الرجل على نفسه، ومن هو أقرب الناس إليه بالتكميل، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ وقيل أهله أمته، فإن الأنبياء آباء الأمم ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ لاستقامة أقواله وأفعاله، وهذا نهاية في المدح.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ﴾ وهو سبط شيث عليهما السلام، وجدُّ أب نوح عليه السلام، أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من خط بالقلم ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ أي ملازماً للصدق.

﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ بشرف النبوة وعلو الرتبة بالذكر الجميل، عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه رأى إدريس في السماء الرابعة[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة الكريمة ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بأنواع النعم الدينية والدنيوية ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيان للموصول أي هم أنبياء الله الكرام ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ بدل منه بإعادة الجار أي هم من نسل آدم ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي ومن ذرية من حملناه معه، وهم من عدا إدريس عليه السلام لأنه كان قبل نوح ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهم الباقون ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام والد يوسف الصدّيق ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ أي من جملة من هديناهم إلى الحق، واجتبيناهم للنبوة ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ البكيُّ جمع باكٍ، كالسجود جمع ساجد، والمراد به سجود التلاوة، وقال بعضهم: الخضوعُ والخشوع، والظاهر يقتضي سجوداً مخصوصاً عند التلاوة، قالوا: ينبغي أن يدعو الساجد في سجدته، بما يليق بآياتها مع الخشوع والخضوع، ومنها الدعاء المأثور «سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره، وشقَّ سمعَه وبصره، تبارك الله أحسنُ الخالقين» وعنه ﷺ: «اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا».

---

(١) طرف من حديث الإسراء الذي رواه الشيخان.

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾ يقال لعقب الخير خَلَفٌ بفتح اللام، ولعقب الشر ﴿ خَلۡفٌ ﴾ بالسكون، أي فعقَّبهم وجاء بعدهم عقب سوء ﴿ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي تركوها وفرَّطوا فيها، أو أخَّروها عن وقتها ﴿ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ﴾ كشرب الخمر، والزنا، والانهماك في فنون المعاصي ﴿ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ شراً، فإن كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد، كما قال الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرَاً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ... ومَنْ يَغْوَ لا يَعْدِمْ عَلَى الغَيِّ لائِمَا

وعن ابن عباس وابن مسعود قالا: هو واد في جهنم، أُعدَّ للمصرين على الزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، وشاهد الزور.

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾ يعني إلا من رجع عن كفره، وآمن بشرائطه ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ بموجب الوعد ﴿ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ أي لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً، أي إن كفرهم السابق، لا يضرهم ولا ينقص أجورهم.

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾ أي جنات إقامة دائمة في جوار عرش الرحمن، وعدهم الله بها فآمنوا بها، قبل أن يروها تصديقاً لوعد الله، والتعرض لعنوان الرحمة، للإيذان بأن وعدها وإنجازها، لكمال سعة رحمته تعالى، والباء في قوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ متعلقة بمضمر أي وعدها

إياهم ملتبسة بالغيب أي غائبة عنهم لا يرونها، وإنما آمنوا بها بمجرد الإخبار ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ أي موعوده كائناً ما كان، فيدخل فيه الجنات، ولما كانت هي مثابة يرجع إليها قال: ﴿مَأْتِيًّا﴾ أي يأتيه من وُعد له لا محالة.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي لا يسمعون في الجنة شيئاً من فضول الكلام، ولا ألفاظاً قبيحة نابية، إنما يسمعون فيها التحية والسلام، وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها، وفيه تنبيه على أن اللغو، مما ينبغي أن يجتنب عنه ما أمكن ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناء منقطع أي لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم، وتسليم بعضهم على بعض ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ على عادة المتنعّمين في هذه الدار، وقيل المراد دوام رزقهم ورفاهية عيشهم، وإلا فليس في الجنة بكرة وعشية، لأنهم في النور أبداً.

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ﴾ أي نورثها ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي نبقيها عليهم ونمتعهم بها كما يبقى مال المورِّثِ على الوارث، والوراثة أقوى لفظ يستعمل في التمليك، من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا إبطال ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ عن الإشراك، وقيل: يورث المتقون من الجنة، المساكن التي كانت لأهل النار، لو آمنوا وأطاعوا، زيادةً في حسرة الكفار.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ هذا حكاية لقول جبريل عليه السلام، حين استبطأ عن رسول الله ﷺ، لمّا سئل عن أصحاب الكهف، أخرج البخاري

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «يا جبريلُ ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت هذه الآية»(١) فكان هذا جواب جبريل عليه السلام، والتنزُّلُ: النزولُ على مَهْل، لأنه مطاوع للتنزيل، وقد يُطلق على مطلق النزول، والمعنى وما نتنزل وقتاً بعد وقت، إلاّ بأمر الله تعالى، على ما تقتضيه حكمته، لأني عبدٌ مأمور ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وهو ما نحن فيه من الأماكن والأزمنة ولا ننتقل من مكان إلى مكان، ولا نتنزل إلا بأمره ومشيئته ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي تاركاً لك يا محمد يعني أن عدم النزول، لم يكن إلا لعدم الأمر به، لحكمة فيه، لا لتركه لك كما زعمت الكفرة، وفي إعادة اسم الرب مضافاً إلى ضميره ﷺ، فيه تشريف عظيم للنبي ﷺ.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي هو تعالى ربُّ العوالم كلها، رب السموات، ورب الأرض، ورب العرش العظيم، وما بين السماء والأرض والنسيانُ عليه تعالى مستحيل، فإن من بيده ملكوت السموات والأرض كيف يُتصور أن يحوم حول ساحته سبحانه، الغفلةُ، والنسيانُ؟ ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي فحين عرفتَه تعالى بما ذُكر من الربوبية، فاعبده، ولا تحزن لإبطاء الوحي، وهزء الكفرة، فإنه تعالى يراقبك، ويلطف بك ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾؟ أي هل تعلم له شبيهاً ومثيلاً، والمراد إنكار الشريك، أي ليس له جلَّ وعلا من يشابهه ويماثله في الأُلوهية والخلق، وما يسميه المشركون آلهة فهي آلهة مزيّفة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/٤٢٨.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ ﴾ المراد به الجنس، وإسناد القول إلى الكل لوجوده فيما بينهم، وإن لم يقله الجميع، كما يقال: بنو فلان قتلوا، وإنما القاتل واحد منهم، وقيل: المراد به الشقي «أُبيٌّ بن خَلَف»[1] فإنه أخذ عظاماً بالية، وقال: يزعم محمد أنا نُبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذه الحال؟ يقول ذلك بطريق الإنكار والاستبعاد ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أي هل سأبعث من الأرض؟ قاله تكذيباً للبعث.

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ من الذكر الذي يُراد به التذكر، والتفكر فيما جرى عليه من شؤون التكوين، أي أيقول ذاك ولا يتذكر ولا يتفكر ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي خلقناه من العدم من قبل هذه الحالة التي هو عليها الآن ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾؟ بل كان عدماً صِرْفاً حيث خلقناه وهو في تلك الحالة، المنافية للخلق؟ فلأن نبعثه بجميع المواد المتفرقة أولى وأظهر.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾ قسَمٌ، باسمه عزَّتْ أسماؤه، مضافاً إلى ضميره ﷺ لتحقيق الأمر، والإشعار بعليته، وتفخيم شأنه ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي لنجمعن

---

(١) كان الشقي «أُبيّ بن خلف» من طواغيت قريش، ومن صناديد الكفر، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾؟ وقد اشتهر بالسخرية والتهكم بأمر البعث والنشور، حتى مات كافراً في غزوة بدر.

المجرمين المنكرين للبعث والنشور مع الشياطين، بعدما أخرجناهم من الأرض أحياء، إثباتاً للبعث ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطف على الضمير المنصوب أي نجمعهم مع الشياطين الذين أغووهم، كل مع شيطانه في سلسلة ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾ ليرى السعداء ما نجاهم الله منه، فيزدادوا غبطة وسروراً، وينال الأشقياء ما ادخروا لمعادهم، فيزدادوا غيظاً وحسرة والجثيُّ جمع جاثٍ يقال: جثا إذا قعد على ركبتيه، أي لنحضرنهم حول جهنم، جاثمين على ركبهم، لما يدهمهم من هول المطلع، وأهلُ الموقف جاثون، لقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾[1] ولعلهم يساقون جثاة من الموقف إلى شاطىء جهنم، إهانة لهم، أو لعجزهم عن القيام، لما عراهم من الشدة.

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل أمة شايعت ديناً، واتبعت مذهباً ﴿أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا﴾ أي من كان أعصىٰ وأعتى منهم، فنطرحهم فيها، الأعصى فالأعصى، والأشقىٰ فالأشقىٰ.

﴿ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا﴾ أي هم أولى بصليها أي دخولها، والصِلِيُّ كالعتِي صيغة وإعلالاً، ويجوز أن يُراد بهم وبأشدهم عتياً رؤساء الشيع، فإن عذابهم مضاعفٌ، لضلالهم وإضلالهم، لقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[2].

(١) سورة الجاثية، آية: ٢٨.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ١٣.

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ وَإِن مِّنكُمْ ﴾ التفات لإظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام، أي ما منكم أيها الناس ﴿ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ أي واصلُها وحاضرٌ دونها، يمرُّ بها المؤمنون وهي خامدة، وتنهار بغيرهم وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[1] فالمراد به الإبعاد عن عذابها، وقيل: ورودها الجوازُ على الصراط، فإنه ممدودٍ ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي ورودها إياها ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أمراً محتوماً أوجبه الله تعالى على ذاته، وقضى أنه لا بد من وقوعه البتة.

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ من الكفر والمعاصي، فيساقون إلى الجنة ﴿ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿ فِيهَا جِثِيًّا﴾ أي قعوداً على الركب في جهنم حقارة بهم.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ أي على المشركين آيات القرآن المبين ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ مرتلات الألفاظ واضحات المعاني والإعجاز ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وضع الموصول موضع الضمير، للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا، كافرين بما يتلى عليهم، أي قال الذين مردوا منهم على الكفر والعناد، وهم النضر بن الحارث وأتباعه ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ ﴾؟ أي المؤمنين، والكافرين، كأنهم قالوا: أينا؟ ﴿خَيْرٌ﴾ نحنُ أو أنتم ﴿مَّقَامًا﴾ موضع إقامة

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠١.

ومنزلاً ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلساً ومجتمعاً؟ كان المشركون يرجّلون شعورهم ويدهنونها، ويتطيبون ويلبسون الملابس الفاخرة، ويجلسون في أنديتهم، ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين، وما هذه المقايسة العقيمة، إلا لكونهم جهلة، لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، يريدون بذلك أن خيريتهم إنما كانت لكرامتهم عند الله. فردَّ الله عليهم بقوله تقدست أسماؤه:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي وكثير من الأمم الطاغية المكذبين لآيات الله أهلكناهم بكفرهم، والقرنُ: جيل من الناس ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾ أي متاعاً ﴿وَرِءْيًا﴾ أي وأجمل صورة ومنظراً من هؤلاء، فكما أهلكنا السابقين نهلك اللاحقين.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ ولمّا بيّن عاقبة أمر الأمم المهلكة، أمر رسول ﷺ بأن يجيب هؤلاء، المفتخرين بما لهم من الحظوظ، ببيان مآل أمر الفريقين، أي من كان مستقراً في الضلالة، مغموراً بالغفلة ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ﴾ أي يمهله بطول العمر، وإعطاء المال، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية للمدِّ، أي حتى يروا ما يحلُّ بهم من عقاب الله ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا كالقتل، والأسر، ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ القيامة، وما ينالهم فيها من الخزي والنكال، وهذا تفصيل للموعود ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من الفريقين، بأن يشاهدوا على عكس ما كانوا يقدرونه، فيعلمون أنهم شر مكاناً ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي فئة وأنصاراً، لا أحسن ندياً كما كانوا يدَّعونه ويزعمون أن لهم أعواناً وأنصاراً، ويفتخرون بذلك في الأندية.

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ ﴾ بيان لحال المهتدين إثر بيان حال الضالين، وأن قصور حظ المؤمن منها، ليس لنقصه بل لأنه تعالى أراد به ما هو خير له ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ أي الطاعات والأعمال الصالحة، التي تبقى فوائدها ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أي خير مما يتمتع به الكفرة، من النعم الفانية، التي يفتخرون بها، لا سيما أنَّ مآلها النعيم المقيم، ومآل هذه الحسرةُ، والعذابُ الأليم ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ أي مرجعاً وعاقبة، وفي التفضيل مع أن ما للكفرة، ليس له خيرية، تهكمٌ بهم، أو على طريقة قولهم «الصيفُ أقرُّ من الشتاء».

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ روى الشيخان عن خبّاب بن الأَرتّ قال: كنت رجلاً قيناً ـ أي حدّاداً ـ في الجاهلية، وكان لي على «العاص بن وائل السهمي» دينٌ فأتيته أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر حتى يُميتَك الله، ثم تبعث، قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: بلى، قال: دعني حتى أموت ثم أبعث، فسأوتى مالاً وولداً فأقضيك، فنزلت هذه الآية[1]. والمراد بالآيات هنا آياتُ البعث، والهمزة للتعجب من حاله، أي أنظرت فرأيت الذي كفر بآياتنا الباهرة، التي حقها أن يؤمن بها كل من يشاهدها ﴿ وَقَالَ ﴾ مستهزئاً بها، مصدِّراً لكلامه باليمين الفاجرة ﴿ لَأُوتَيَنَّ ﴾ في الآخرة ﴿ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ أي انظر إليه فتعجب من حاله؟!.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٤٢٩ ومسلم رقم ٢٧٩٥.

﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ ﴾ رد لكلمته الشنيعة، أي أَوَ قد بلغ من عظمة الشأن، أن ارتقى إلى علم الغيب، الذي استأثر به العليم الخبير، حتى ادَّعىٰ أن يؤتى في الآخرة مالاً وولداً، وأقسم عليه؟ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾؟ بذلك فإنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين.

﴿ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ۚ ﴾ ردع له عن التفوه بتلك العظيمة، وتنبيه على خطئه ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أي سنظهر له افتراءه، وننتقم منه انتقام من كتب جريمة العدوّ، فإن نفس الكتابة لا تتأخر عن القول، لقوله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتيدٌ ﴾ ﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ مكان ما يدعيه لنفسه، من الإمداد بالمال والولد، أي نطوّل له من العذاب ما يستحقه، أو نزيد عذابه، لافترائه على الله تعالى، واستهزائه بآياته، وتأكيدُهُ بالمصدر، دلالة على فرط الغضب.

﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَنَرِثُهُۥ ﴾ بموته ﴿ مَا يَقُولُ ﴾ أي مسمى ما يقول، وهو ما أوتيه في الدنيا من المال والولد، أي ننزع عنه ما آتيناه ﴿ وَيَأْتِينَا ﴾ يوم القيامة ﴿ فَرْدًا ﴾ بلا مال ولا ولد، كقوله تعالى: ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾.

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً ﴾ أي اتخذوا الأصنام آلهة من دون الله تعالى ﴿ لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾ ليتعززوا بهم، بأن يكونوا لهم وسيلة إليه عز وجل وشفعاء.

﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل، وإنكار لوقوع ما علّقوا به أطماعهم الفارغة ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أي ستجحد الآلهة بعبادتهم، بأن ينطقها الله، وتقول ما عبدتمونا؛ ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أي تكون الآلهة أعداء لهم يوم القيامة.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ مما نطقت به الآيات الكريمة السالفة، وتنبيه على أن جميع ذلك منهم بإضلال الشياطين وإغوائهم، ومعنى إرسال الشياطين عليهم تسليطهم وتمكينهم من إضلالهم ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ أي تغريهم وتهيجهم على المعاصي، والأزُّ، والهزُّ والاستفزاز، معناها شدةُ الإزعاج.

﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ بأن يهلكوا وتطهر الأرض من فسادهم ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ أي لا تعجل بهلاكهم، فإنه لم يبق لهم إلا أيام قلائل تعدُّها عليهم عداً، قيل: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مَدَد، فما أسرع ما تنفد!؟.

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي نجمعهم ﴿ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ وافدين عليه، كما يفد الضيوف على الملوك، منتظرين لإنعامهم.

﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ كما تساق البهائم ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ أي عطاشاً، فإن من ورد الماء لاَ يَرِدُه إلاَّ لعطش أو كالدابة التي ترد الماء.

﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ ﴾ الضمير فيه للعباد، أي لا يملك فيه أحد أن يشفع لأحد ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ أي لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم، إلاَّ من أُمر بذلك، وأذن الله له بالشفاعة، فيكون ترغيباً للناس في تحصيل الإيمان والتقوى.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴾ أي افترى اليهود والنصارى ومن زعم من العرب أن الملائكة بنات الله، فجعلوا لله ولداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ ردٌّ لمقالتهم الباطلة، وتهويل لأمرها بطريق الالتفات، المنبيء عن كمال السخط، والإِدُّ بالكسر: الأمر العظيم المنكر، أي فعلتم أمراً منكراً شديداً، لا يُقادر قدره.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ﴾ أي تقرب السموات بعظمتها ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أي يتشققن مرة بعد أخرى، من عظم ذلك الأمر ﴿ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ ﴾ أي تكاد تنشق الأرض ﴿ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ ﴾ أي تسقط وتنهدم ﴿ هَدًّا ﴾ مصدر مؤكد لمحذوف، أي تُهدُّ هدّاً وتتساقط أشد ما يكون تساقطاً، والمعنى: إن هول هذه الكلمة وعظمها، بحيث لو تصور بصورة محسوسة، لم تتحملها هذه

الأجرام العظام، وتفتت من شدتها، بحيث لولا حلمه تعالى لخرَّبت العالمَ غضباً على من تفوَّه بها.

﴿أَن دَعَوۡا۟ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ أي لأن دعوا له سبحانه ولداً، ونسبوا له ما لا يليق من الذرية والبنين.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ والحال أنه لا يليق به تعالى اتخاذ الولد، لاستحالته في نفسه، لأن الولد يقتضي المجانسة، ويكون عن حاجة وهو سبحانه المنزَّه عن المثيل والنظير، والغني عن المعين والنصير، فكيف يتسنى أن يجانس المخلوق الخالق حتى يتوهم أن يتخذ ولداً؟.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ما منهم أحد من الملائكة والثقلين ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ إلا وهو مملوك له، يأوي إليه بالعبودية والانقياد، ونسبة الجميع إليه عزَّ وجلَّ نسبة العبد إلى المولى، فكيف يكون بعضه ولداً؟.

﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾.

﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ﴾ أي حصرهم وأحاط بهم، بحيث لا يكاد يخرج منهم أحد من حيطة علمه، وقبضة قدرته ﴿وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾ أي عدَّ أشخاصهم، وأنفاسهم، وأفعالهم، فإن كل شيء عنده بمقدار.

﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ أي كل واحد منهم، سيأتي ربه تعالى منفرداً من الأتباع والأنصار، فإذا كان هذا شأنه تعالى وشأنهم، فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيئاً منهم ولداً، لأنه لا يجانسه شيء من ذلك ولا يناسبه..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ لمَّا فصَّل قبائح أحوال الكَفرة، عقَّب ذلك بذكر محاسن المؤمنين، أي صدَّقوا الله وفعلوا الخيرات ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ أي سيحدث لهم في القلوب مودة، من غير تعرض لأسبابها، سوى ما لهم من الإيمان والعمل الصالح، وقيل يحبهم الله ويحببهم إلى عباده، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله سبحانه عبداً، دعا جبريل عليه السلام فقال: إنَّ الله يحب فلاناً فأحبَّه، فيحبُّه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء، إن الله يحب فلاناً فيحبُّه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»[1] والسين في «سيجعل» للاستقبال لأن السورة مكية، فوعده ثم أنجز وعده حين تمكَّن الإسلام، وكثر أنصاره.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ ﴾ أي القرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ بأن أنزلناه على لغتك والفاء لتعليل الأمر كأنه قيل: بلِّغْ هذا المنزل، وبشِّرْ به، فإنما يسرناه بلسانك العربي المبين ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي سائر أهل التقوى ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ أي وتخوّف به قوماً معاندين، لجاجاً وعناداً، واللُّدُّ جمع الألدّ، وهو الشديد الخصومة والجدال.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التوحيد ١٣/ ٤٦١ ومسلم رقم ٢٦٣٧ في البِرّ والصلة، والترمذي رقم ٣١٦٠ في التفسير، وزاد في حديثه «فذاك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾».

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ وعدٌ لرسول الله ﷺ، في ضمن وعيد الكفرة بالإهلاك، أي أهلكنا قبل هؤلاء الكفار قوماً كثيرين معاندين ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ هل تشعر بأحد منهم وتراه؟ ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ أي صوتاً خفياً، وأصل الركز الخفاء، والركاز: المال المدفون المخفي أي بادوا جميعاً فلم يبق منهم عين ولا أثر.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة مريم»

* * *